٤

كلمة المتحدث الرئيس سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، المفتي العام لسلطنة عُمان

سماحة الشيخ
أحمد بن حمد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عُمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه حقَّ حمده، حمدًا يوافي نعمه ويكافئ مزيده، لا حدَّ لغايته، ولا أمد لنهايته، سبحانه لا أحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، يهب ما يشاء لمن يشاء، ويفضِّل الناس بعضهم على بعض، تلك هي سنَّة اللّه في خلقه. والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا ونبيِّنا محمَّد، قائد الغُرِّ المحجَّلين، وهبَة اللّه تعالى للعالمين، الذي علَّم من الجهالة، وهدى من الضَّلالة، وبصَّر من العَمَى، وأنقذ من الرَّدى، وعلى آله وصحبه، وعلى تابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

صاحب السُّموِّ السيِّد أسعد بن طارق آل سعيد، ممثِّل جلالة السلطان المعظَّم، أصحاب المعالي والسعادة والفضيلة، أيُّها الإخوة الحضور، الطلبة والطالبات، أحيِّيكم جميعًا بتحيَّة الإسلام المباركة الطيِّبة، فالسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.

وإنَّها لَفرصة أن يجمعنا اللّه سبحانه وتعالى في هذا الصَّرح العلميِّ الشامخ، في مدينة نزوى، عاصمة العلم والإمامة، التي كانت تُشْرِقُ على عُمان بأسرها، إذ كانت موردًا لكلِّ ظامئ إلى العلم، يأتون إليها من كلِّ فجٍّ عميق، وتعاقبت أئمَّة الدين على تَخْتِهَا، كما يقول العلَّامة والشاعر الكبير أبو مسلم رحمه اللّه تعالى:

أئـمَّـةٌ حُـفـظَ الـدِّيـنُ الحَـنـيـفُ بهم ... مـنْ يـوم قـيـلَ لـديـن اللّه أدْيَـانُ
صيدٌ كِـرَامٌ أُبَـاةُ الضَّيْمِ أُسْدُ شَرًى ... شُمْسُ العَـزَائِـم أَوَّاهُـونَ رُهْـبَـانُ
سُفْنُ النَّجَاة هُـدَاةُ النَّاسِ قَادَتُهمْ ... طُهْرُ السَّـرَائِرِ لـلإسْـلاَم حيطَانُ
تَـقَـيَّـلُـوا مِـدَحَ الـقُـرآنِ أَجْـمَـعَـهَـا ... إذا اسْـتَـحَـقَّ مَـدِيـحَ اللّهِ إيمَـانُ

واليوم يُحْتَفَى بنموذج من هؤلاء الأئمَّة العادلين، بالإمام العادل التقيِّ العلَّامة المحقِّق محمَّد بن عبد اَللّه الخليلي رحمه الله تعالى. وماذا عسى أن أقول في حقِّ هذا العلَم الشامخ، في حقِّ هذا الإمام الكبير، الذي جمع بين العدل في الحُكم، والتحقيق في العلم، والأخلاق العالية الفاضلة، فكان مثالاً للاقتداء بالنبيِّ صلوات الله وسلامه عليه. ولا أزال أذكر كلمة قالها قسِّيسٌ أمريكيٌّ لي عندما اجتمعت به وسألني عن العلاقة بالإمام، وقال: حدَّثنا الطبيب تومس عنه بأنَّه كان يُمَثِّلُ خُلُقَ إبراهيم عليه السلام الذي جاء ربَّه بقلب سليم، هذه شهادةٌ من قسٍّ أمريكيٍّ سمعتُها منه مباشرةً. وقد شهد الكثير ممَّن أدركوه وممَّن سمعوا عنه بأخلاقه العالية، وسلامة قلبه، واستقامته في الدين، واتِّباعه لأمر الله، واقتدائه برسل الله سبحانه.

أمَّا إذا جئنا إلى مكانة الإمام من حيث العلم، فإنَّ ألسنة الناس شاهدة، وكما يُقَال: "ألسنة الخلق شهود الحقِّ"، فالذين عاصروه وعرفوا دوره في هذه الحياة تحدَّثت ألسنتهم وأقلامهم عمَّا كان متَّصفًا به من غزارة العلم وسعته، فالشاعر الكبير الملقب بشيخ البيان محمَّد بن شيخان السالميُّ يقول:

أمَّـا الإمـامُ أبـو خليلٍ فهْـوَ في ... نَشْرِ العُلوم غَدَا عَديمَ مُمَاثِلِ
ذُو رَحْـمَـةٍ لِلمُـتَّقينَ ونِقْمَةٍ ... لِلمُعْتَدينَ ونِعمةٍ للسَّائلِ
وإذا الشَّدائدُ ضَيَّقَتْ حَلَقَاتِهَا ... رُمِيَتْ بِكَشْفٍ مِنْهُ كَافٍ كَافِلِ

ومن الكلمات التي قيلت في تأبينه ما قاله رئيس الجمعيَّة العربيَّة بزنجبار الشيخ عبد الله بن سليمان الحارثي في كلمته التي ألقاها بعد الصلاة عليه، عندما اشترك المسلمون هناك على اختلاف مذاهبهم في الصلاة عليه، فقد قال فيما قاله في وصفه: "تبحَّر في الأصول، وأخذ حظَّه من الفروع، وفاق أقرانه، وتفرَّد عن أصحابه بكثير من المسائل؛ لأنَّه بلغ درجة الاجتهاد، وصار في الذروة العليا التي لا يُزَاحِمُهُ فيها مُزَاحِم، عرف ذلك معاصروه، وتشهد بذلك فتاواه".

ومثل ذلك ما قاله الشيخ البليغ أحمد بن حمدون الحارثي أيضًا في كلمة تأبينيَّة، قال: "طودٌ بل بحرٌ من العلم، كاد أن يُؤلِّف بين الغنم والأسود المُسَاورة، مضى إلى العالم الروحانيِّ يرفُلُ في حُلَله السندسيَّة، وآثارُه تُخَلِّد له حُسْنَ الثناء على الألسن، وحُبًّا من أعماق القلوب رضي الله عنه، وأغدق عليه سحائب الرحمة، وأحسن عزاء

المسلمين في مُصَابه".

أمَّا بالنسبة إلى الذين عاصروه هنا في عُمان، فكلمات الثناء عليه من أقرانه وتلامذته هي أكثر من أن تُحْصَى. كان ممَّا شهد به العلَّامة الجليل شيخنا ابن جُمَيِّل قال فيه: "أعلم أهل العصر في عُمان، وسمعنا الشهادات الكثيرة من العلماء الذين كانوا حول الإمام يعترفون بتفوُّقه عليهم، وفضله من بينهم. وممَّن شهدوا له: شيخه الإمام نور الدين السالمي رحمه الله تعالى، الذي اعترف له في بعض المناقشات التي كانت بينه وبينه بأنَّه علَّامةٌ جليلٌ".

ولعلَّ أعظم هذه الشهادات جميعًا شهادة قطب الأئمَّة، رحمه الله تعالى، الذي كتب إلى الإمام وهو عمره قد جاوز التسعين -أي: عمر القطب في ذلك الوقت جاوز التسعين- وعمر الإمام في نحو الثلاثين، أو أنَّه كان يناهز الثلاثين، كتب إليه رسالة يطلب منه بأن يشهد له بأنَّه بلغ الدرجة الثالثة من درجات الاجتهاد، وهي درجة الاجتهاد المطلق، وقال: "أرجو أن تنفعني هذه الشهادة".

فطَلَبُ من إمامٍ معترف له بتفوُّقه في العلوم، حتَّى لُقِّب بقطب الأئمَّة، كان المقدَّم على أهل زمانه جميعًا، يقدِّمُهُ إلى شابٍّ في عمر الثلاثين، أو أنَّه كان يناهز الثلاثين في ذلك الوقت ليس بالأمر الهيِّن، إنَّما هو شهادة للمطلوب منه قبل أن تكون شهادة لمن طلبها، أي: هي شهادة من قطب الأئمَّة بعلوِّ منزلة الإمام في العلم.

وقد كان -بجانب هذا العلم الواسع- حصيفَ الرأي، ثاقبَ الفكر، يحتمل الشدائد بصدرٍ أوسع من رحاب الفضاء، وكان مهيَّأً لحلِّ كلِّ مشكلة من المشكلات، هذا ممَّا عُرِفَ عنه، ولا ريب أنَّ هذه المنزلة إنَّما وصل إليها بأمرين اثنين:

وصل إليها باجتهاده في طلب العلم، كما كان مشهورًا بذلك؛ فقد تواتر عنه أنَّه كان إبَّان طلبه في مذاكرة العلم في إحدى الليالي في مسجد من المساجد، وانصرف القائم على ذلك المسجد، وطلب من الإمام أن يُطْفِئَ الضوء، وكان ذلك بعد صلاة العشاء، فرجع إلى المسجد لأذان الفجر، فإذا بالضوء مكانه، فكان يُبْدي أسفه بأنَّ الإمام غفل عن إطفاء الضوء، ولَمَّا دخل وجده مُكبًّا على كتابه مكانه لم ينتبه للَّيل الذي مرَّ، بل كان طول ليله عاكفًا على كتابه، فالعلم إنَّما حصل بالجدِّ في الطلب، كما يُقَال:

بِـجِـدٍّ لا بِـجَـدٍّ مِـنْ مُجِـدٍّ وهَـلْ جَـدٌّ بـلا جِـدٍّ بِمُـجْـدِ؟

فإنَّ الجِدَّ والجَدَّ إذا اجتمعا حقَّقا العجائب، وفَعَلاَ الكثير في نفوس الناس. وبجانب ذلك: الورع الذي يُصَاحبه الإخلاص لله ﷻ، فإنَّ الورع يفعل في الناس الشيء الكثير. العلم هو طريقٌ إلى الهداية، ولكن يسلك هذه الطريق مَنْ كان ورعًا في عمله، حريصًا على مرضاة ربِّه ﷻ.

وخُـذْ بدليل العلم يهدك إنَّـه طريق يحار العقل فيه وعيرُ
وفِعْلُكَ حَسْبَ المُسْتَطَاعِ مِنَ التُّقَى على غَيْرِ علم ضَيْعَةٌ وغُرورُ
فما زَكَتِ الأعْمَالُ إلاَّ لِمُبْصِرٍ على نورِ علم في الطريق يَسيرُ
أتَدَّخِرُ الأعْمَالَ جَهْلاً بوجهها؟ وأنتَ إلى علم هُنَاكَ فَقِيرُ
فيَا طالبَ اللهِ ائتِه مِنْ طَريقه وإلاَّ فبالحِرْمَانِ أنتَ جديرُ
فلستَ إذا لم تَهْتَدِ الدَّرْبَ واصلاً قبيلُكَ في جَهْلِ السُّلوك دَبِيرُ
وما العلمُ إلاَّ ما أردتَ به التُّقَى وإلاَّ فخَطْءٌ ما حملْتَ كبيرُ
فكمْ حاملٍ علمًا وفي الجهْلِ لوْ درى سلامَتُهُ ممَّا إليه يَصِيرُ
وما أنتَ بالعلم الغزيرِ بمُفْلِحٍ وما لكَ جِدٌّ في التُّقاةِ غزيرُ
وحسْبُكَ علمًا نافعًا فَرْدُ حِكْمَةٍ بها السِّرُّ حيٌّ والجوارحُ نورُ
تعلَّمْ لوجْهِ اللهِ واعْمَلْ لوجْهِهِ وَثِقْ مِنْهُ بالمَوْعُودِ فَهْوَ جَدِيرُ

فكلٌّ من طلب العلم والعمل بالعلم يجب أن يكون بإخلاص لله ﷻ. ولا ريب أنَّ العلم هو الميزة التي ميَّز الله ﷻ بها الإنسان، هو السبب الذي فُضِّل به على غيره من أجناس المخلوقات العلويَّة والسُّفليَّة، إنَّما فُضِّل الإنسان بسبب العلم، فالله ﷻ بيَّن مكانة العلم عندما بيَّن للملأ الأعلى مكانة الإنسان الذي خلقه وهيَّأه لأنْ يَحْمِلَ رسالة العلم، فقد قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا ءَادَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم

بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (سورة البقرة: ٣٠-٣٣)، كان هذا هو سبب استخلاف الإنسان في الأرض، فإذن هذه الخلافة إنَّما هي منوطة بهذا العلم، بتشبُّع الإنسان من العلوم على اختلاف أنواعها؛ لأنَّه من خلال وظيفته في هذه الحياة لا بُدَّ من أن يتعامل مع جميع المُكوَّنات الأخرى، هذه المُكوَّنات لا بُدَّ من أن يكون على معرفة بخصائصها، ولا يُمْكِنُه ذلك إلاَّ بالتمييز بينها، ومعرفةُ أسمائها سببٌ لهذا التمييز؛ ولذلك امتحنَ اللّه ﷻ الملائكة، وعندما تحقَّق نجاح آدم - أبي البشر - على الملائكة في هذا الأمر، أمر الله تعالى الملائكة أن يسجدوا له اعترافًا بهذا التفوُّق الذي تفوَّقه الإنسان عليهم.

وقد توالت رسالات اللّه ﷻ إلى عباده حاملةً إلى الناس هداية العلم، فجميع المرسلين إنَّما بُعثُوا مُعَلِّمين، بُعثُوا ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (سورة النساء: ١٦٥). وعندما كانت الدَّورة الأخيرة التي هي مسك الختام، دورة النبيِّ محمَّد ﷺ، إنَّما كانت هذه الرسالة مفتتحة بكلمة: "اقْرَأْ"، وهي أوَّل كلمة يُخَاطَب بها النبيُّ ﷺ، ومن خلال شَخْصِه الكريم تُخَاطَبُ هذه الأمَّةُ جميعًا، فهيَ مطالبة بأن تكون أمَّة قراءة.

وممَّا يتبادر أنَّ هذه الكلمة لا يُمْكن أن تسُدَّ كلمةٌ أخرى مَسَدَّها، فلو قيل بدلاً منها: "اعْلَمْ" أو: "افْهَمْ" أو: "تَبَيَّنْ" أو: "أَدْرِكْ" أو نحو ذلك... لم تأت كلمة من تلك الكلمات لتَسُدَّ مسدَّ هذه الكلمة. إنَّما جاءت كلمة: "اقْرَأْ" فاتحةً لهذا الوحي، للإيذان بأنَّ هذه الأمَّة مُطَالبة بأن تَخرج من الأميَّة التي كانت عليها حتَّى تكون رائدةً في القراءة والكتابة، أمِرَتْ بأن تقرأ المكتوب.

والكتابة هي وسيلة تخليد العلم، ووسيلة نشره بين الناس جميعًا؛ فإنَّ الكتابة هي السبب لنقل العلوم من جيل إلى جيل، ونقلها من أمَّة إلى أمَّة، ومن أرض إلى أرض، وقد كانت الوسيلةُ الوحيدةُ القلمَ، ولا يزال القلم له هذا الدور؛ ولذلك امتنَّ اللّه ﷻ على عباده بأن علَّمهم بالقلم، وعلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون، ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلَق: ٣- ٥).

وقد امتنَّ اللّه ﷻ على الناس بأنَّ النبيَّ ﷺ الذي بعثه بين الأميِّين - وهو منهم

- جاء مُعلِّمًا لهم ليُنقذَهُم من هذه الضَّلالة، وليُخرِجَهم من هذه الجهالة، فالله ﷻ يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة آل عمران: ١٦٤). ويمتنُّ على العرب الأميِّين خاصَّة بذلك، فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة الجُمُعَة: ٢)، ونحن نرى هنا بأنَّ الله ﷻ امتنَّ بنبيِّه ﷺ مُزَكِّيًا قبل أن يمتنَّ به مُعلِّمًا؛ إذ صدَّر بالتزكية فذكرها قبل التعليم، كما كان ذلك أيضا في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ (سورة البَقَرة: ١٥١-١٥٢)؛ ذلك لأنَّ العلم بلا تزكية لا قيمة له، فالله ﷻ ضرب ذلك المثل السَّيِّئ في الذي آتاه آياته ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (سورة الأعرَاف: ١٧٥)؛ وما ذلك إلاَّ لأنَّ علمه الغزير لم يُجْده شيئًا مع فقدان التزكية التي هي تنقيةٌ للنفس البشريَّة من جميع طبائعها السَّيِّئَة، ووصْلها بالله ﷻ، والله سبحانه بيَّن في كتابه أنَّ مَنْ لَمْ يُزَكِّ نَفْسَه دسَّاها، وأنَّ مَنْ دسَّاها فقد أشقاها، أمَّا مَنْ زكَّاها فقد أسعدها، فالله تعالى يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (سورة الشَّمس: ٧-١٠).

والتزكية إنَّما تكون بالعمل بالعلم، مع إخلاص هذا العمل لله سبحانه، بحيث يُطْلَبُ العلمُ لوجه الله تعالى، فحسبنا أن نرى ذلك المثل الذي ضربه الله ﷻ في بني إسرائيل، وهو إن كان من حيث لفظه في بني إسرائيل خاصَّة فهو من حيث معناه يشمل كُلَّ مَنْ كان على طريقتهم، إذ يقول سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة الجُمُعَة: ٥)، وإذَا كان هذا في الذين حُمِّلوا التوراة فإنَّ الذين حُمِّلوا القرآن إن لم يحملوه بجدارة، ويعملوا به، ويُكَيِّفُوا حياتهم وفق تعاليمه؛ أيضًا هم حقيقون بهذا المَثَل نفسه، وإذا كان الله تعالى يُخاطب أهل الكتاب بقوله: ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ (سورة المائِدَة: ٦٨)؛ فإنَّ أمَّة القرآن ليست على شيءٍ أيضًا حتَّى تُقِيمَ القرآن.

فهؤلاء الصَّالحون رَقَوا إلى هذه الدرجات العُلَى بالعلم وبالتزكية، بإخلاص النفوس لله ﷻ، واتِّصالهم بالله.

مَحَبَّةُ اللهِ سِرٌّ أينَمَا وَقَعَتْ ... لَهَا على عَالَمِ الإمْكَانِ إذْعَانُ
تُعْطِيكَ فَتْحًا وإنْ سُدَّتْ مَغَالِقُهُ ... وَطَوْرُ عَقْلِكَ في ذا الفَتْحِ حَيرَانُ
فلا عليكَ إذا صَحَّتْ مَحَبَّتُهُ ... إذا وفَى لكَ هذا الخَلْقُ أو خَانُوا

محبَّة الله ﷻ تُحَقِّق العجائب في هذه الحياة، وحُبُّ الله ﷻ مرهونٌ باتِّباع النبيِّ ﷺ والاقتداء به، فإنَّ الله ﷻ يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (سورة آل عمرَان: ٣١)، جعل اتِّباع النبيِّ ﷺ مُكْتَنَفًا بطرفي المحبَّة، بمحبَّة العباد لله - لأنَّ هذا الاتِّباع تصديقٌ لهذا الحُبِّ، حُبِّ الله ﷻ -ومحبَّة الله للعباد التي تكون جزاءً على هذا الحُبِّ، وجزاءً على اتِّباع الرسول ﷺ.

وما على الإنسان إذا أحبَّ الله تعالى فأحبَّه الله مِنْ شيء بعد ذلك؛ لأنَّ العالم ينفتح له بإذن الله ﷻ، ويُطَوِّع الله ﷻ له النفوس، إذ هذه النفوس جَبَلَهَا الله تعالى على الإعجاب بأهل الخير -وإن لم يكن أهلها من أهل الخير-، إلاَّ أنَّ الإعجاب بأهل الخير طبيعةٌ مركوزةٌ في النفوس، كما سمعنا هذا الرجل الذي يعترف للإمام بأنَّه على خُلُق إبراهيم عليه السلام، وهو ليس على دينه، ولا يُؤمِنُ بملَّته، ولا يتَّبع طريقته، ولكن مع ذلك يعترف هذا الاعتراف.

وكما اعترف الكثير الكثير ممَّن يعادون النبيَّ ﷺ بقدره العظيم، وجلاله الذي لا يُسَامى، وأنَّه يفوق على الخلق أجمعين، كم مِنْ أحد اعترف بهذا القدر العظيم للنبيِّ - عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصَّلاة والتسليم - مع عدم الإيمان رأسًا، منهم ملاحدة لا يعترفون بدين ولا يعترفون بملَّة، ولكنهم وقفوا مشدوهين أمام عظمة شخصيَّة الرسول ﷺ، واعترفوا لهذه الشخصيَّة بالفضل العظيم!.

كان من بين هؤلاء: "شبلي شميِّل" الذي كان في الأصل كاثوليكيًّا، ثُمَّ كفر بالكاثوليكيَّة وبكلِّ شيء، وخرج من كُلِّ دين، وصار ملحدًا لا يؤمن إلاَّ بالماديَّات، ولكن عندما كان يقرأ في مجلَّة "المنار" ما كان يُحَرِّرُه العلاَّمة السيِّد رشيد رضا

في هذه المجلَّة من صفحات خاصَّة بمناقب النبيِّ ﷺ، بعث إليه رسالة مختصرة، وبعد هذه الرسالة أبيات، قال في رسالته: "إلى غزاليِّ عصره، السيِّد محمَّد رشيد رضا، صاحب مجلَّة المنار، أنت تنظر إلى محمَّد كنبيٍّ وتجعله عظيمًا، وأنا أنظر إليه كرجل وأجعله أعظم، ونحن وإن كُنَّا في الاعتقاد، الدين أو المبدأ الدينيِّ، على طرفي نقيض؛ فإنَّنا يجمع بيننا العقل الواسع والإخلاص في القول، وذلك أوثق لِعُرَى المودَّة بيننا". "الحَقُّ أولى أن يُقَال" تحت هذا العنوان كتب هذه الأبيات:

دعْ مِنْ محمَّد في سدى قُرْآنِه ... ما قَدْ نَحاهُ لِلُحْمَةِ الغَايَاتِ
إنِّي وإنْ أكُ قَدْ كَفَرْتُ بِدِينِه ... هَلْ أكْفُرنَّ بِمُحْكَمِ الآيَاتِ
أو ما حَوَتْ في نَاصِعِ الأَلْفَاظِ مِنْ ... حِكَمٍ رَوَادِعَ لِلْهَوَى وَعِظَاتِ
وشَرَائِعٍ لو أنَّهمْ عَقلُوا بها ... ما قيَّدُوا العُمْرَانَ بالعَاداتِ
نِعْمَ المُدبِّرُ والحكِيمُ وإنَّهُ ... رَبُّ الفَصَاحَةِ مُصْطَفى الكَلِمَاتِ
رَجُلُ الحِجَا رَجُلُ السِّيَاسَةِ وَالدَّهَا ... بَطَلٌ حَلِيفُ النَّصْرِ في الغَارَاتِ
بِبَلاغَةِ القُرْآنِ قَدْ غَلَبَ النُّهَى ... وَبِسَيْفِه أنْحَى على الهَامَاتِ
مِنْ دُونِه الأبْطَالُ في كُلِّ الوَرَى ... من سَابِقٍ أو حَاضِرٍ أو آتِ

فإذن، هذا دليلٌ على أنَّ الصَّلاح في العمل والاستقامة والتفوُّق في المناقب ممَّا يورث الناس محبَّة، سواء من مُحبِّيهم، أو من خصومهم، قد تكون هذه المحبَّة حتَّى من الخصوم المعاندين، كهؤلاء الملاحدة الذين يدعون إلى الكفر بالله، وعدم التديُّن بأيِّ دين من الأديان، كُفْرًا بكلِّ القيم الدينيَّة، هؤلاء مع ذلك قد يُعْجَبون بالصَّالحين، وقد يُعْجَبون بأهل الخير؛ فلذلك كان من الضروريِّ بمكان أن نُدْرك قيمة العلم الذي يكون مصحوبًا بتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق والرُّقيِّ بهذه الأخلاق.

فنحن نرى أنَّ الله ﷻ عندما وصف النبيَّ ﷺ لم يَصِفْهُ بالعلم الغزير، لم يقل له: "وإنَّكَ لعلى علم غزير"، وإنَّما وصفه بالخُلُق العظيم، إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (سورة القَلَم: ٤)، والنبيُّ ﷺ نفسه يُخْبِرُ عن قيمة الأخلاق،

إذ يقول: "بُعِثْتُ مُتَمِّمًا لِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ"، فالمهم التخلُّق بهذه الأخلاق، بأخلاق النُّبوَّة، أخلاقَ الرسول ﷺ التي كانت تجسُّد القرآن، كما قالت أمُّ المؤمنين عائشة، رضي الله تعالى، عنها عندما سُئِلَت عن خُلُقه ﷺ قالت: "كَانَ خُلُقُهُ القُرآنَ". وقد انعكس هذا الخلق الرفيع الذي كان عليه -صلوات الله وسلامه عليه- على مَنْ حوله مِنَ الصحابة، وعلى مَنْ جاء بعدهم مُتَّبِعًا لهم بإحسان إلى يوم القيامة، كُلُّ مَنْ كان يسير على هذا النهج فإنَّما هو متخلِّقٌ بأخلاق القرآن.

فعلينا جميعًا أن نحرص على التخلُّق بأخلاق القرآن، وعلى المؤسَّسات العلميَّة من الروضة إلى الدراسات العليا أن تُعْنَى بالأخلاق بجانب العناية بالعلم، إذ لا بُدَّ أن تُعْنَى بالأخلاق، وغرس هذه الأخلاق، والمحافظة على القيم، والاستقامة في الظاهر والباطن، فإنَّ هذه هي التزكية التي يجب أن نحرص على تزكية نفوسنا بها، وأن نحرص على تزكية أبنائنا بها، فإنَّ أبناءنا هم أفلاذ أكبادنا، فعلينا أن نحرص على استقامتهم وصلاحهم، فالشاعر يقول:

وإنَّمــا أَوْلادُنَــا بَيْـنَـنَـا ... أَكْـبَـادُنَـا تَمْشِـي على الأَرْضِ
لو هَبَّتِ الرِّيحُ على بَعْضِهِمْ ... لامْتَنَعَتْ عَيْنِـي عن الغَمْضِ

فإذا كان هبوب الريح على الأولاد يمنع عن آبائهم وأمَّهاتهم غَمْضَ أعينهم، فكيف بما يُخْشَى عليهم من عذاب الله تعالى إن لم يتَّبعوا النهج الصحيح، النهج الذي ينقذهم من الرَّدى، ويجعلهم في مُبَوَّأ الكرامة في مقعد صدق، عند مَنْ أكرمهم الله تعالى وأنعم عليهم، من النبيِّين والصدِّيقين والشُّهَداء والصَّالحين؟!.

ولا ريب أنَّ العناية بهذا التاريخ، والعناية بهذه الأمجاد، والعناية بهؤلاء العظماء في هذا العهد الزاهر الذي يقوده حضرة صاحب الجلالة السُّلطان قابوس بن سعيد المعظَّم -حفظه الله وعافاه، وردَّه إلينا سالمًا غانمًا-؛ لا ريب أنَّ هذه العناية تعني اهتمام القائد بأن يكون الحاضر امتدادًا للماضي، وأن يُضَمَّ الطارف إلى التليد من هذه الأمجاد، وأن يُحَافظ على هذا التاريخ، وأن يُحَافظ على هذا النَّشء؛ ليسير هذه السِّيرة الزكيَّة. فنحن نُطَالب الآباء والأمَّهات، والمدرِّسين والمدرِّسات، ونطالب جميع المؤسَّسات التعليميَّة أن تحرص جميعًا على غرس هذه الأخلاق، وغرس هذه المعاني القيِّمة في نفوس الناشئة؛ لتستمرَّ هذه الناشئة على

حمل هذه الرسالة، رسالة الخير إلى الناس جميعًا.

وأشكركم شكرًا جزيلاً، وأخصُّ بشكري جامعة نزوى ومَنْ فيها، وأسأل الله ﷻ أن يَشْفِيَ رئيسها وأن يُعِيْدَه إليها سالمًا غانمًا؛ وأشكر أيضًا مركز الخليل بن أحمد الفراهيدي، ومركز سنَاو الثقافي، راجيًا من الله تعالى التوفيق للكلِّ، لكلِّ ما فيه الخير، والشكر للجميع،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.